

## الفصل



### تدابير التجديد

لاحظت فيكتوريا وودهل في كتابها "التزايد السريع لمن لا يصلحون" الصادر عام ١٨٩١ أن "أفضل أذكاء عصرنا يقبلون حقيقة أننا إذا كُنَّا ننشد إنسانا أفضل، فلا بد أن نستولده، وإذا كنا نرى أن البلهاء والمجرمين ونوى الاملاق وغيرهم ممن لا يصلحون، ليسوا بالمواطنين المرغوبين فمن الواجب ألا نستولدهم". وبعد تحول القرن تزايد الحديث بين اليوجينيين الأنجلو أمريكيين عن طريقة تنفيذ ذلك. كان في المقترحات من التباين بقدر ما كان في قناعة أعضاء الحركة. على أنا نستطيع أن نقسم أسلوب العمل إلى نهجين يتداخلان أحيانا: "اليوجينيا الإيجابية" التي تهدف إلى تشجيع التكاثر بين أهل التقدير الاجتماعي، و"اليوجينيا السلبية" التي تهدف إلى تشجيع الأقل تميزا علي أن يقللوا من نسلهم أو - وهو الأفضل - ألا ينجبوا على الإطلاق.

كان فرانسيس جالتون قبل كل شيء يوجينيا إيجابيا، وكان بين من ورثوه مثاليون، وكان الكثير منهم محافظين مثله، أما عن مراكزهم: فلقد كان منهم ألكندر جراهام بيل الذي زكى زواج الصم بأفراد من عائلات لاتحمل الصمم، متوقعا أن نتخلص بذلك من هذه النقيصة، وكان منهم أسقف ريبون الذي حث على تناسل الأصلح من أجل المصلحة الإمبريالية حتى يمكن تعمير المستعمرات بأفراد ممتازين من "الجنس" البريطاني، وكان منهم أيضا تيودور روزفلت الذي نبه تشارلس دافينبورت إلى أننا "سنعرف يوما أن المهمة الرئيسية لكل مواطن صالح، المهمة التي لافكك منها، هي أن يخلق دمه في العالم بعده". ورغم ذلك فإن أقوى مؤيدي اليوجينيا الإيجابية في الولايات المتحدة وبريطانيا عند بداية هذا القرن كانوا من المتطرفين الاجتماعيين، والكثيرون منهم كانوا يميلون إلى الرؤى اليوتوبية.

أعلن هافلوك إليس عام ١٩١١ "إننا نوُلدُ السلالة، إننا وحدنا من يستطيع أن يجدد السلالة". طمح أليس أن يستغل المعرفة الوراثية الجديدة في زيادة عدد الأكثر صلاحية. ومثله كان جورج برنارد شو، وإن كانت حركة اليوجينيا لم تَسَلِّمْ من سخريته (قال مرة إنه لايلزم بالضرورة أن يعاقب القتلة الذين يصيبون الصحافة البريطانية بالذعر، لأنهم قد يخلصون المجتمع من غير المرغوبين يوجينيا، أما من يميلون بطبيعتهم إلى القتل فلقد يكون من الواجب أن نعلمهم ألا يقتلوا سوى مَنْ يمكن للمجتمع أن يمضى بدونهم). لكن بالرغم من أن شو كان يتخذ دور المهرج الشنيع، فلقد أخذ اليوجينيا على محمل الجد، حتى ليشترك في مجلة كارل بيرسون "بيومترিকা"، وليظل دائما على اتصال ببيرسون، وليجعل من نفسه شخصية بارزة في حركة اليوجينيا البريطانية.

غلف شو كتابه "الإنسان والسوبرمان" بالمبادئ اليوجينية. كتب بطريقة خطابية في مقدمة الكتاب يقول "لأننا جنباء، فإننا نبطل الانتخاب الطبيعي بدعوى حب الانسانية، ولأننا كسالى، فإننا نهمل الانتخاب الاصطناعي تحت شعار الرقة والفضيلة". إن الاصلاحات البيئية في ذاتها لا تبشر - عند شو - باقتراب العصر الذهبي لليوجينيا. سخر من اليوجينيا السلبية التي بدا أن المجتمع مستعد لتطبيقها "بمتعة فائقة، علي المشنقة وفي ساحة القتال"، وأصر على ضرورة أن نولى اهتماما أكبر للتحسين البيولوجي لهذا الكائن البائس المسمى الانسان. قال من أجل الحضارة لم يسبق أن أوجدنا إنسانا، وكل ما فعلناه هو أن أبدنا الملايين. إننا نقتل الانسان في الثبِّتِ مهما كان الثمن، بالرغم من ديننا، لكي نفتح للإنجليزى الطريق إلى العاصمة لازا، لكننا لم نتخذ خطوة علمية حقيقية تضمن أن يتمكن هذا الانجليزى عندما يصل إلى هناك أن يعيش وفق التفوق الذي نفترضه". قَطُرَت يوجينيا شو الايجابية هدفَ جالتون الخالد - التخلص من الخطيئة الأصلية بالتخلص من المذنب الأصلي - قطرته إلى جوهر اجتماعى ملزم، ذلك أنه بلا سوبرمان، بلا توسع في قدرة الانسان المعنوية والأخلاقية، لن يكون التقدم الاجتماعى إلا وهما.

اعتبر الراديكاليون الاجتماعيون الاصلاحات البيئية مهمة من الناحية اليوجينية. ولعل هارولد لاسكى، الاشتراكي الشاب، هو خير من يمثل وجهة نظرهم. أنفق لاسكى ستة أشهر في معمل بيرسون قبل أن يلتحق بجامعة أكسفورد، ونشر وهو هناك مقالة عن اليوجينيا لفتت نظر جالتون نفسه، فدعاه على فنجان شاي ("إنه ببساطة شاب جميل من النموذج اليهودى" هكذا أخبر بيرسون، مضيفا في يومياته أن لاسكى سيكون ذا شأن إذا واصل العمل في

اليوجينية). أنشأ لاسكى "نادى جالتون" فى اكسفورد من أجل المناقشات اليوجينية، ورأى أن الوقت سيحين بالتأكيد عندما يرى المجتمع أن "إنجاب الضعفاء هو جريمة فى حق نفسه". لكنه انشق علي بيرسون فى قضية التشريعات الاجتماعية مثل قانونى المصنع والتعليم، فقد رأى بيرسون أن إبعاد الأطفال عن القوة العاملة ربما تسبب فى تثبيط همة العائلات العاملة القوية فى إنجاب نسل أكثر. اعتبر لاسكى أن أهداف القانونين "تستحق التقدير" وأنه من الممكن معالجة آثارهما السيئة بالنسبة للصفات الوراثية برفع الحد الأدنى للأجور بما يسمح لأباء الأطفال المرغوبين بأن يعولوا أبناءهم.

كانت أهم الاصلاحات البيئية، من وجهة نظر الراديكاليين الاجتماعيين من اليوجينيين، هى تخفيف الفروق بين الطبقات، أو الغائها تماما - وهذا أفضل. كان ظنهم، كما وضعه أليس، هو أن "أفضل أرومة" ليست هى بالضرورة أرومة الطبقة الاجتماعية العليا، وإنما هى موجودة فى كل الطبقات الاجتماعية، بل وربما كانت الأرومة فى الطبقات الدنيا "هى الأكثر مقاومة للظروف غير الملائمة". يستمر الجدل يقول إن الفقر ينتج عن التزاوج العشوائى بين رجال ونساء حرموا من اختيار الشريك أو الشريكة الأفضل وراثيا. فإذا ماتحطمت الفروق بين الطبقات فمن الممكن للتطور الانسانى والاجتماعى أن يتقدم، ليس كيفما اتفق، وإنما عن فعل واع للإرادة الجماعية. فى مقدمة كتاب "الانسان والسوبرمان" كتب شو "إذا جزأنا البشرية زمرا صغيرة، ثم حددنا اختيارات الفرد داخل زمرة، فإننا بذلك نؤجل ظهور السوبرمان دهرا، وإن لم يكن إلى الأبد. لايكفى أن يربى الفرد ويدرب كوالد محتمل، بل يلزم أيضا ألا تكون ثمة عقبة أمام الانتخاب الطبيعى، كمثل الاعتراض على زواج كونتيسة من عامل أو بوق من خادمة".

فى عام ١٩١٠ أثار شو البهجة فى جمهور مستمعيه عندما اقترح أن مصلحة اليوجينيا تتطلب السماح للنساء أن يصبحن أمهات محترمات دون الحاجة إلى الإقامة مع آباء أبنائهن. الواضح أن شو كان يتفق مع ادعاء أليس بأن "قضية اليوجينيا هى إلى حد كبير نفس قضية المرأة". كان التحرريون بالنسبة لهذه القضية يعتبرون أن تحكم المرأة فى حياتها هو احدى الضرورات اليوجينية - ليس فقط من الناحية الجسدية. فبنون الوظيفة المستقلة ستُجبر المرأة على الزواج من زوج كثيرا مايكون مريضا أو فاسقا. ستتمكنن الوظيفة من تجنب الزواج غير الملائم يوجينيا، ولانقصد عدم الزواج على الإطلاق أو عدم الإنجاب. اعترف هافلوك إليس،

برغم أنه كان عقيما أبشر، أو ربما لأنه كان كذلك، بأن تحقق الـيوجينيا... لا يمكن أن يتم إلا بتحقيق الحركة النسائية في أحدث وأكمل أطوارها كتثاقفة أمومة مستتيرة".

لكن الكثيرين من الـيوجينيين الراديكاليين الاجتماعيين تشككوا في أن يحجم المعوقون وراثيا عن الزواج من أجل مصلحة السلالة. إن هذا - كما يقول إليس - وهمٌ يوتوبى من أوهام فرانسيس جالتون، ثم أضاف أن النتيجة هي "أن يُساء باستمرار تفهم الـيوجينيا، وأن تجد من يسخر منها، وأن تعتبر بدعة". أما الآن وبعد أن تحققت أو تكاد السيطرة الميكانيكية على التكاثر، فإن الـيوجينيا لم تعد في حاجة إلى أن تكون غير عملية، أو سخيصة، أو معارضة لرغبات الانسان الطبيعية. وهذا يجعل من العلاقة الجنسية مجرد مسألة متعة شخصية، ومن ثم يستثمر فعل التناسل لمصلحة السلالة. أضاف إليس أن تنظيم النسل سيخفف الأعباء المالية على العائلات منخفضة الدخل، ويحمي صحة الأم، ويسمح برعاية أفضل لمن يولد من أطفال.

وهذه المناقشات - المألوفة الآن - كانت خلافة أيام إليس. لقد حظّر أولو الاحتشام المتطرف في أمريكا - طويلا - حتى مناقشة وسائل تنظيم النسل، دعك من توزيعها. وحتى المتعاطفون مع قضية منع الحمل، سنجدهم في بعض الأحياء يعملون على كبت الموضوع بمعارضتهم مناقشته علنا. عورضت قضية تنظيم النسل بشدة على جانبي الأطنطى قبل الحرب العالمية الأولى، عارضها العديد من الـيوجينيين الذين شايعوا الاتجاه السائد للحركة، وهم من قد نسميهم "يوجينى الخط الأم". وكان الكثير من هؤلاء من نوى النزعة المحافظة، وكانت رؤيتهم لقضايا مثل "قضية المرأة" تختلف بوضوح عن رؤية إليس وشو.

كان يوجينيو الخط الأم يعتقدون أن طرق منع الحمل ستجيز فصل العاطفة عن مسئوليات الانجاب، ومن ثم ستؤدى إلى الفسق. ولقد اتهم هنرى فيرفيلد أوسبورن (هى عام ١٩٣٢) تنظيم النسل بأنه يؤدى إلى "اتجاهات" غير طبيعية تماما، وأشار إلى أن الدولة التى تستخدم تنظيم النسل فى "صورته الأكثر تطرفا" هى الاتحاد السوفىيىتى "حيث يرتبط بقدر كبير من العلاقات الجنسية غير الشرعية". أبقى ليونارد داروين موضوع تنظيم النسل بعيدا عن التداول فى جمعية التربية الـيوجينية، وعن صفحات مجلته "يوجينيكس ريفيو". لم يكن هذا ببساطة لأن الكثيرين من أعضاء الجمعية يجنون الموضوع بغیضا، ولكن لأنهم كانوا يعتبرون تنظيم النسل - كما قال داروين - مدمرا "للسلالة. وبالرغم من أن وسائل منع الحمل من ناحية المبدأ قد

تساعد في إيقاف تكاثر الجماعات الأقل دخلا والأقل تعليما، فإنها كانت مرفوضة عمليا في هذه القطاعات من المجتمع، والواقع أن الطبقة العليا هي التي كانت تستخدمها بنسبة أعلى غير متكافئة - نقصد الطبقة التي أزجعت اليوجينيين بسبب تدهور خصبها.

أما داخل الخط الأم لليوجينيا في إنجلترا وأمريكا فقد كان مكان المرأة المتعارف عليه هو البيت، قرب المدفأة وسرير الطفل - إن واجبهن، كما ترنم الكاهن إنج وأعلن تيودور روزفلت بصوت عال، هو أن يتزوجن وينجبن الأطفال (كان العدد الضروري المفترض من الأبناء لحفظ السلالة هو أربعة لكل زوج). أعلن إيوين جرانت كونكلين، أستاذ علم الأجنة بجامعة برينستون وأحد كبار البيولوجيين في ذلك العهد، أعلن عام ١٩٢٥ أن الحركة النسائية هي "عون للسلالة" للحد الذي تمنح فيه النساء حرية ثقافية وسياسية أكبر، أما بالنسبة لما تطلبه من "التحرر من الزواج والانجاب"، فهي انتحارية. في كتاب "العائلة والأمة" للزوجين هويدام - وهما ذاتهما الجناح المعارض للحركة النسائية داخل جمعية التربية اليوجينية - صرخا يقولان "ويل لأمة ترفض أفضل نساؤها أن يحملن عبأهن الطبيعي المجيد!".

تنبه يوجينيو الخط الأم إلى خطر التعليم العالي للمرأة. تقول حججهم إن التعليم يحول الطاقة البيولوجية عند المرأة من مهمة الإنجاب إلى أثقال الأنشطة الذهنية والدينية. بينت الدراسات في أوائل القرن أن خريجات الجامعة يملن إلى عدم الزواج، وأن من تحمل منهن تنجب في المتوسط عددا من الأطفال يقل عن اثنين، وهذا أقل من نصف العدد المطلوب لبقاء أرومتهن الاجتماعية (أوضح رئيس كلية نيونهام، كيمبريدج، عام ١٨٩٠، إحصائيا، أن خريجات الجامعة يتمتعن بنفس صحة قريباتهن الأقل تعليما، بنفس احتمالات الزواج، وبنفس الخصب، أما نسبة العوانس والبترفيهن فهي من ملامح الطبقة الاجتماعية، لامن ملامح تعليمهن العالي). تخوف محلل أمريكي من أن ارتفاع نسبة النساء بين الأساتذة في كليات البنات سيشجع الطالبات على حب هذه المهنة. ورفض أوسبورن أن يصادق علي التعديل القاضي بمنح النساء التصويت، على أساس أن هذا يتعارض مع تطور الجنس البشرى.

ورغم ذلك فقد انضم يوجينيو الخط الأم إلى الراديكاليين الاجتماعيين ليجعلوا من التربية والتعليم، على الأقل بالنسبة لليوجينيا، نقطة رئيسية في برامجهم، وذلك بعد أن فشلوا في إيقاف مد إقرار حق التصويت للنساء، والتعليم العالي لهن، وثورتهم الجنسية. سعدت الجمعية

الأمريكية لليوجينيا وهي تعلن في عشرينات هذا القرن أن ثمة مقررات في اليوجينيا قد أصبحت تدرس آنذاك في نحو ٣٥٠ كلية وجامعة. كان الشباب من الجنسين يوجهون لمعرفة مسئولياتهم التناسلية نحو السلالة (في محاضرة لكارل بيرسون في عشرينات هذا القرن ذكر أن الزواج الذي يتم لمجرد الرغبة في السعادة هو زواج "أناني معاد لمصلحة المجتمع"). والأكثر من ذلك أن يوجيني الخط الأم، حتى هؤلاء، قد عضدوا، من أجل خير السلالة، تدريس قوانين الوراثة للنشء، بل وحتى تدريس حقائق الصحة الجنسية والأمراض التناسلية والحمل ورعاية الطفل - حتى يعرفوا العواقب المضمنة في ممارسة الحب التي ستظهر في النسل، وحتى يصبح "القديس فالتنتين قديسا للعلم لا للفولكلور" كما قال هافلوك إليس.

كان الغرض من المجهود التعليمي هو تشجيع اليوجينيا الايجابية، ولكنه كان يهدف أيضا وينفس القوة إلى تشجيع الإدراك باليوجينيا السلبية: من الضروري تجنب العلاقات الجنسية بين الأصحاء و "الموصومين" أو المرضى. اقترح البيولوجي البريطاني ج. آرثر طومسون أن الثقافة اليوجينية قد توظف "تحيزا صحيا ضد الزواج بين من لديهم نزعة وراثية واضحة نحو أمراض معنية (كالصرع والسكر)، لاسيما إذا كان الزوجان من بين أفراد عائلة واحدة، ثم تسأل "أمنَ اليوتوبية أن نأمل أن يتقدم الوعي الأخلاقي للرجل العادي رويدا رويدا فيحمل بين ما يحمل شعورا بالمسئولية نحو صحة الأجيال القادمة؟". تتوقف هذه الصحة عند اليوجينيين، ولحد كبير، على تقليل الفوارق الاجتماعية في معدل المواليد، وهذه مسألة تلقى دائما بأصواتها على فوائد منع الحمل. لقد أقر حتى يوجينيو الخط الأم بأن ثمة ما هو صحيح في تأكيد ماتقول به مجلة "أمنًا الأرض" الشهرية (إيما جولدمان) من أن من ينكرون نشر وسائل تنظيم النسل إنما "يشجعون بالقانون تزايد المملقين ومرضى الزهري ومرضى الصرع والسكيرين والمقعدين والمجرمين والمنحليين".

وعلى عشرينات قرننا هذا كان الغزو الفرويدى لعادات الطبقة الوسطى يسير بخطى سريعة. قيل إن للمرأة أن تتوقع الارتواء الجنسي في الزواج بون خوف من الحمل. لقد جاء تنظيم النسل ليبقى، ومثله أيضا - على ما يبدو - الانخفاض المطرد في معدل المواليد بالطبقات العليا. وكما قالت مارجريت سانجر، فإن الاستجابة اليوجينية المعقولة لاختلاف معدل الولادة بين الطبقات، هي أن توفر المعرفة عن منع الحمل، وفرص استخدامه، لنوى الدخول المنخفضة والتعليم الأقل، مثلما توفر لغيرهم. ربطت سانجر، قبل الحرب، ما بين تنظيم النسل والحركة

النسائية، أما الآن فقد ربطت - مثل قرينتها البريطانية ماري ستوبس - بين منع الحمل والقضية اليوجينية. كتبت عام ١٩١٩ تقول "أطفال أكثر من نوى الصلاحية الأعلى، وأطفال أقل من نوى الصلاحية الأدنى - هذه هي المهمة الأولى لتنظيم النسل". بل إن ليونارد داروين نفسه قد اقتنع في النهاية بالانضمام إلى حركة تنظيم النسل. أصبح منع الحمل، بعد أن حُرِّدَ من النسائية الصارمة، مقبولاً لدى اليوجينيين المحافظين، فثمة تناغم طبيعي بين ميولهم الاجتماعية وبين الأساس المنطقي لتنظيم النسل الذي قدمه هافلوك إليس: "يلقى الرجل العطوف قرشاً إلى المتسول، أما الرجل الأكثر عطفاً فيبني له ملجأً حتى لا يحتاج إلى التسول، لكن، ربما كان أكثرنا عطفاً هو من يدبر الأمر بحيث لا يولد المتسول".

\* \* \*

توقع الكثير من اليوجينيين أن برنامج تحسين السلالة - الإيجابي أو السلبي - لابد أن يعتمد على الإرادة الحرة للناس - ومن ثمَّ كان التأكيد على التعليم، والنصح، وضرورة منع الحمل. إن التحكم في الأمور الشديدة الخصوصية من حياة الإنسان - كالزواج والجنس والحمل - لابد أن يُترك للحرية الشخصية. كان الكثير من اليوجينيين - الراديكاليين منهم ومعتنقي الخط الأم - هم من المصلحين الأخلاقيين الذين يؤمنون مع هافلوك إليس بأن "الأكراه الوحيد الذي يمكن تطبيقه في اليوجينيا هو الأكراه الذي يأتي من الداخل". أما الاعتقاد بأهمية الإرادة الحرة للفرد فينبع من أن ما كان يعرف عن قوانين الوراثة في الإنسان - في رأي الثقات الوراثيين - هو قدر ضئيل. ثم إن إثارة الدولة ضد توالد المتخلفين قد "يجد باسم العلم طغياناً تطلب الأمر دهوراً من التطور الاجتماعي للخروج منه"، كما قال سوسيولوجي انجليزي قبل أن يتمكن النازي من السلطة. بعد فترة وجيزة من تأسيس جمعية الثقافة اليوجينية عام ١٩٠٧، أعلنت أن سياستها ليست هي تأييد تدخل الدولة في اليوجينيا. ورغم ذلك، فثمة عدد من اليوجينيين البريطان والأمريكان اقتنعوا بوجهة النظر التي قدمها جالتون قرب نهاية حياته: ربما وجدنا ببعض المشاكل الحرجة - لاسيما توالد المتخلفين - من وضوح المعالم ومن الفظاعة ما يبيح تدخل الدولة بشكل قسري في تكاثر البشر.

بعد أن تلتقت اليوجينيا الطاقة من الدارونية الاجتماعية، قد يبدو من المحير أن يلجأ اليوجينيون، والمحافظون منهم بالذات، إلى الحكومة، فوجهة النظر النمطية لعقيدتهم تقول إن

التنافس يقود أوتوماتيكيا إلى بقاء الأصلاح، وتدخّل الحكومة سيفسد عمليةً أفضل أن تُترك للفعل المستقل للقانون الدارويني - الانتخاب الطبيعي للأصلاح. لكن الصلاحية في نظرية داروين تعنى القدرة على الحياة والتكاثر في بيئه معينه، والأفراد نوو الصلاحية تحت هذا المعنى يشملون بالتحديد أنماط الطبقة الدنيا المسئولة، كما يقول كارل بيرسون، عن الجانب الأعلى من معدل المواليد التفاضلي، لاحظ إدجار شصطر - أول زميل يوجيني بكنية الجامعة بلندن، أن الصلاحية تعنى شيئا مختلفا عند الـ يوجينيين: "حالة طيبة أو نوعية ممتازة، جسديا وذهنيا... نوعاً من الخيال البيولوجي لما يجب أن يكون عليه الانسان". فإذا ما كان الانتخاب الطبيعي يثمر الفرد الصالح دارونيا، فليس غير الانتخاب الاصطناعي من يقوم بتكاثر الفرد الصالح يوجينيا - بالوسائل الحكومية حيثما كان ذلك مناسباً.

حرك هذا التفكير المحافظين على وجه الخصوص (فلم يكن المصلحون والرايكياليون آنئذ في حاجة إلى دافع خاص) ليحيونوا عن مبدأ "اتركه يعمل"، ببرنامج من تدابير الـ يوجينيا الايجابية. كان هذا البرنامج يتضمن تدخلا حكوميا لانتاج السلالة الأفضل من خلال حوافز مالية مختلفة. "إذا كانت المرأة تستطيع، باختيارها الدقيق للأب، وبعنايتها بتغذيتها، أن تنجب مواطنا ذا حواس فعالة وأعضاء سليمة وهضم ممتاز، فلا بد أن تُمنح جائزة، مكافأة لها على هذه الخدمة العامة، حتى تظل راغبة في أداء المهمة وتكرارها"، هكذا كتب شو في مقدمة "الانسان والسوبرمان"، كانت الحوافز المقترحة تشمل تخفيض الضرائب للمساعدة في تغطية تكاليف الأمومة ورعاية الطفل، لاسيما في العائلات التي تستحق التقدير (بدت هذه الفكرة غير ملائمة بالنسبة لوزير المالية، ونستون تشرشل. صحيح أنه كان يعتبر أن تشجيع الخصب في طبقات المهنيين أمر يستحق التقدير، لكنه أعلن أن هذا الهدف لايدخل ضمن بنود الميزانية العامة، التي لا تهتم إلا بتمويل الحكومة). تضمنت التوصيات أيضا علاوة للدراسة ومنحا للتعويض عن المرتب، تقدم للنساء من الطبقات العاملة بالصناعة اللاني يضطرون لترك العمل أثناء الحمل والولادة ورعاية الطفل.

طلب الـ يوجينيون البريطانيون من الجيش، وقد أفرزهم مقتل الكثيرين من «أفضل» الشباب في ساحة القتال أثناء الحرب العالمية الأولى، طلبوا أن تصدر شارات للكُم تسمى «الشارات الـ يوجينية» تمنح لمن هم أهل للتقدير من الجرحى، فلقد توازن الجروح التي تجعل هؤلاء أقل جاذبية بالنسبة للنساء، ترسل الـ يوجينيون أيضا إلى الحكومة أن تمنح كل من يتزوج من

هؤلاء المحاربين القدامى منزلا خاصا. ولقد دفع منطق اليوجينيا الايجابية حتى المحافظين لأن يوصوا بدفع مرتبات رجال الطبقة العاملة المحترمين حتى يتمكنوا من ابقاء زوجاتهم بالمنزل يحملن ويرعين الأطفال، بدلا من الالتحاق بالعمل. بل لقد رأى الزوجان هويذام أنه من المفضل أن تقف الدولة أموالا على الأبوة، فتمنح الأوسمة والجوائز لكل من ينجب نسلا قويا سليما قادرا، أيا كان موقعه في المجتمع.

كانت الرغبة في هجر مبدأ "اتركه يعمل" قوية أيضا عند معتققي اليوجينيا السلبية. قاد المبدأ الاشتراكي الكاتب ه. ج. ويلز إلى القول إن "الأطفال الذين يأتى بهم آباؤهم إلى هذا العالم لا يجب أن يستمروا هكذا شأننا خاصا من شئون الآباء، إلا بمقدار خصوصية ما ينشرون من جراثيم الأمراض أو يذيعون من ضجيج في منازلهم". شعر رجال الاجتماع والطب النفسى ومراقبو الاصلاح - وهم المقتنعون بالأساس الوراثى للتخلف الاجتماعى - شعروا بأنهم مجبرون على تزكية تدخل الحكومة كحل أوحده لتقليل حجم عملهم. أطلق هافلوك إليس اسم "المجتمع السيزيفى" على المجتمع الذى يحاول الاصلاح الاجتماعى بينما يسمح "بالدخول إلى الحياة... للضعيف وغير الكفاء والمعتل، بحرية أكثر مما يسمح بها للقوى الكفاء السليم العقل".

ظهر هذا المنطق كإوضح ما يكون فى الاستجابة التى قولت بها "آفة ضعاف العقول". وجد اليوجينيون من كل ضرب أرضية مشتركة فى الفكرة القويمة القائلة بالتخلص من العيوب الاجتماعية عن طريق منع تناسل غير المرغوبين يوجينيا: أما الاقتراحات التى قُدمت لانجاز هذه المهمة فقد تراوحت ما بين الوحشية (قتل المتخلفين بلا ألم، أو السماح للأمهات بخنق من يحمل من أطفالهن تشوهات وراثية) وبين السخرية (التخلص من إدمان الكحوليات بأن نترك المدمنين يشربون حتى الموت، أو معاقبة القاتل بشنق جده!). على أن اليوجينيين عموما قد رفضوا الاجهاض وسيلة لمنع ولادة من لا يصلحون، فلقد اعتبرته الجمعية اليوجينية الأمريكية جريمة قتل، إلا إذا تمت على أساس طبى صارم. تمسك المجتمع اليوجينى بديلا عن ذلك، بشدة واصرار، بتقييد الزواج، والعزل الجنسى، والتعقيم، ثم تقييد الهجرة - فى أمريكا.

أولى اليوجينيون اهتماما خاصا لزواج ضعاف العقول والمجانين والمرضى، لاسيما المرضى بالأمراض التناسلية. اقترح البعض التوسع فى أسباب الطلاق لتشمل الصرع والقصور

الذهنى والإجرام وإدمان المسكرات. ومضى آخرون لأبعد من هذا فزكوا أن يجبر العريس فى المستقبل على الحصول على شهادة طبية بخلوه من الأمراض التناسلية والعقلية. غير أن هنرى جودارد، مثلا، قد أبرز أن قوانين تقييد الزواج ليست الدواء لكل داء، وبالذات بالنسبة لضعاف العقول، فلأن الكثيرين منهم يفتقرون إلى الاحساس المتأصل بالفضيلة، فإن تعويق زواجهم لن يشكل عقبة أمام تكاثرهم. تصور الكثيرون من اليوجيين على جانبى الاطلنطى أن مشكلة المعوقين عقليا تتطلب أن يصبح العزل الجنسى أمرا منظما تنظيما رسميا. قال الزوجان هويدام "بالاصلاح التشريعى يمكننا أن نعزل عن المجتمع أسوأ النماذج من ضعاف العقول، والمجرمين بالفطرة، والملقن الميئوس منهم، ومن ثم نخلص سلالاتنا تماما من العناصر الملوثة ذات الدم الحقيقير".

كان العزل عن المجتمع والتوجيه هما الوجه الآخر للتربية والرعاية، والنهجان يكملان بعضهما بسولة فى التفكير اليوجيني. أوضحت الجمعية اليوجينية الأمريكية الفوائد المؤكدة التى نتوقها من العزل عن المجتمع فى كتيبها "سؤال وجواب".

س: كم يتكلف العزل عن المجتمع؟

ج: قُدِّرَ أننا لو كنا قد عزلنا جدِّى "الجيوكس" طيلة العمر لتكلفت ولاية نيويورك ٢٥٠٠٠ دولار.

س: هل هذا توفير حقيقى؟

ج: نعم. لقد قُدِّرَ أن ما أنفقته ولاية نيويورك حتى عام ١٩١٦ على سلالة هذين الجدين يبلغ ٢٠٠٠ ٠٠٠ دولار.

س: ماهى تكاليف تعقيم الجدين الأصليين لعائلة جيوكس؟

ج: أقل من ١٥٠ دولارا.

منذ ثمانينات القرن الماضى بدأ عدد محدود من موظفى المراكز الأمريكية للمعوقين ذهنيا، يؤيدون سياسة التعقيم. وفى عام ١٨٨٩، فى مدرسة بنسلفانيا لتدريب الأطفال البلهاء فى إلوين، قام المدير الدكتور اسحق نيوتن كيرلين بعد موافقة الآباء، بفحص بضعة أطفال. لم تكن

ثمة ولاية قد أجازت التعقيم قانوناً، لكن مثل هذه التجارب على "من لا يصلحون" ظلت مستمرة، لاسيما علي يدى الدكتور هارى سى. شارب، الطبيب بإصلاحية ولاية إنديانا فى جيفرسونفيل، فلقد راد هذا الطبيب عملية قطع الوعاء الناقل للمجرمين عام ١٨٩٩. وعلى عام ١٩٠٧ كان شارب قد أجرى هذه العملية على ٤٦٥ شخصا، قيل إن أكثر من ثلثهم قد طلبها بنفسه. يقول شارب "قطع الوعاء الناقل هو ربط جزء صغير من هذا الوعاء ثم استنصاله بالجراحة، والعملية فى الواقع بسيطة للغاية وسهلة التنفيذ، وأنا أقوم بها دون تخدير جزئى أو كلى، وهى تستغرق نحو ثلاث دقائق، يعود بعدها المريض إلى عمله دون أدنى إزعاج، ثم انها لاتفسد على الاطلاق طريقتة فى الحياة أو حريته أو سعادته، برغم أنها تعقمه فعلاً". كان الرجال يعاملون بقطع الوعاء الناقل، أما النساء فكن يعقمن بقطع قناة فالوب أو ربطها، وهى عملية مؤلة خطيرة.

كان اليوجينيون المعضدون للتعقيم موجودين فى كل مكان عبر النطاق السياسى، وكلهم يضعون مصلحة المجتمع قبل حقوق الأفراد. ألقى الدكتور وليم ج. روينسون (طبيب الأمراض البولية، المتعصب الجنسى) خطبة قال فيها "إنها الذروة الغباء أن نتحدث فى مواضيع الحرية الشخصية هذه عن حقوق الفرد. فمثل هؤلاء لاحقوق لهم، فليس لهم بادىء ذى بدء الحق فى أن يولدوا، ولكن طالما أنهم ولدوا، فليس لهم الحق فى إكثار نوعهم". نما بين اليوجينيين بالولايات المتحدة إجماع قوى على تحبيذ التعقيم - تراوح معضدوه ما بين مارجريت سانجر وتيودور روزفلت. ولم يكن ثمة إجماع فى بريطانيا، إذ لم يقتنع بضرورة هذا المنهج إلا عدد قليل نسبيا من اليوجينيين البريطان، وإن كان هناك من وضعوه محل الاعتبار مثل فرانسيس جالتون ("لأرى غير التعقيم سبيلا نوقف به تكاثر غير الصالحين، الذين يمنحون الحرية لكنهم أدنى من أن يهتموا بالضوابط الأخلاقية") و ه. ج. ويلز الذى تأمل فى تحسين السلالة البشرية عن طريق "تعقيم العاجزين".

أصيب الكثير من اليوجينيين الأمريكان بالقلق لأن قوانين تقييد الزواج وبرامج التعقيم ستكون عديمة النفع طالما استمر التهديد الخارجى للقوة البيولوجية للأمة، ففي الخمس عشرة سنة الأولى من هذا القرن كان المهاجرون يشكلون نحو نصف الزيادة فى عدد السكان. حذر ميشيل جاير عام ١٩١٦ من أن هذا الاتجاه يندر بالخطر لأن "المهاجرين بعد وصولهم إلى هذا البلد يبيزون السكان المحليين - وبمراحل - فى معدل التكاثر". (حذر الكاهن كينيت سى.

ماكارثر فى خطاب توزيع جوائز اليوجينيا من أننا إذا استخدمنا المعدلات الحالية، فإن كل ألف خريج من هارفارد اليوم، سيتبقى من سلالتهم بعد مائتى عام خمسون فردا فقط، بينما يتبقى من سلالة ألف مهاجر روماني مائة ألف". اعتمد كبار الثقات العلميين (الوراثيون، والسيكولوجيون، والأنثروبولوجيون) على "شواهد" الخبراء (وبالذات اختبارات الذكاء لهنرى جودارد عن المهاجرين، ونتائج تحليل بريجهام لاختبارات ذكاء الجيش) ليؤكدوا أن نسبة كبيرة من المهاجرين ينتمون، أو يكاونون، إلى فئة "ضعاف العقول"، وأن استمرار دخولهم إلى الدولة - كما قال بركيس - سيؤدى إلى "تدهور السلالة". أيا كان مايعنيه تمثال الحرية، فإن اليوجينيين الأمريكان من أمثال تشارلس دافينبورت قد أكدوا ضرورة أن نضع مستقبل الأمة فى الاعتبار. كتب دافينبورت لأخيه وليام (وهو كاهن وهب حياته للعمل مع المهاجرين الايطاليين فى بروكلين نيويورك) كتب يقول "تخيل أى بلد ستصبح بلدنا... (بعد مائتى عام) إذا ظلت الأبواب مفتوحة على مصراعها طيلة الوقت، تستقبل مهاجرين تحثم شركات النقل ومقاولو العمالة الرخيصة؟. إننا لانريد أن نصنع من مدينة نيويورك ولونج أيلاند نولة اسمها المسيسبى، أو ما هو أسوأ من ذلك".

حاول تشارلس دافينبورت أن يبرهن على ضرورة أن يتم الانتخاب على أساس فردى، وأنه لايجب أن تُصنف شعوب بأنها غير مرغوبة. لكن بحلول أوائل عشرينات القرن العشرين حُجِب مبدأ الانتخاب على أساس الخصائص البيولوجية والعقلية للفرد، ليسود مبدأ الانتخاب على أساس المجاميع السلالية والعرقية. لاشك أن هذا التحول إنما يعكس حجم المطالبات الصاخبة بتقييد الهجرة، كما أنه يعبر عن التحامل العرقى الواضح للكثير من اليوجينيين. كان من أهم النقاط الرئيسية فى البرنامج اليوجينى الأمريكى تقييد الهجرة من شرق وجنوب أوروبا. ثم اتسع البرنامج فى النهاية ليسمح بالهجرة فقط لنوى الدم القوقازى النقى، لمن يحصل على تقدير ج على الأقل فى اختبار الذكاء بالجيش - وهذا هو المتوسط المفترض للشعب الأمريكى، لمن يحصل على شهادة بأنه سيصبح أصلا ببيولوجيا نافعا بالولايات المتحدة - وذلك بناء على تقييم يجرى على أقاربه. قالت الجمعية اليوجينية الأمريكية "لابد أن تعتبر الهجرة قبل كل شىء استثمارا طويل المدى فى خامات العائلات".